تصدير

إن ما أقدمه إليك عزيزى القـــارئ مجـرد قـراءة لبعـض النصوص المصرية القديمة فى الفكر السياسى . كل ما هنالك أن هذه القراءة قد قدمت من منظور فلسفى يحلل المحتـوى الفكـرى لتلـك النصوص وصولا إلى معرفة معالم الفكر السياسى فى مصر القديمة. وهى محاولة من جانبنا للتعرف على الفلسفة السياسية الكامنـة فـى عقل ووجدان المصريين القدماء سواء كانت هذه الفلسفة قابعة فـى عقول الملوك أو فى وجدان الشعب من خلال ما اكتشف حتـى الآن من نصوص تمثل فكر عينة عشوائية من المصريين سـواء كـانوا حكاماً أو محكومين .

وقد تبين لنا تعدد مستوى الخطاب السياسى فى مصر القديمة؛ فهناك خطاب السلطة السياسية المتمثل فى المراسيم الصـادرة عـن الملوك المصريين القدماء سواء كنصائح يقدمونها إلى الأمراء مـن أبنائهم أو كتعليمات ووصايا صدرت على شكل تكليفات لوزرائهم .

وهناك خطاب الحكماء الذين حملوا فيه على الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية وانتقدوا الحكام الذين تسببوا فى هذه الفوضى السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى عصور الانتقال التى شهدتها مصر القديمة . ولم يتوقف الخطاب السياسى للحكماء المصريين القدامى عند حد وصف الأوضاع القائمة ونقدها وبيان المتسببين فيها ، وإنما قدم هؤلاء الحكماء رؤاهم الحالمة بشأن المستقبل فحلم كلٌ منهم بما يشبه المدينة الفاضلة وتنبئوا بما يمكن أن يحمله المستقبل القريب لبلادهم من حكام جدد أقوياء عادلين يتمتعون بكل صفات البطولة السياسية والقدرة على تحقيق العدالة والاستقرار، كما قدموا تصوراتهم حول صورة هذا الحاكم الأمثل وحول ما ينبغى أن يكون عليه الحال فى الدولة السعيدة المثالية .

وهناك كذلك خطاب الشعب ، والمقصود بخطاب الشعب هو ذلك الخطاب السياسى الذى صدر من أفراد عاديين تعرضوا للمظالم فجأروا بالشكوى ورفعوا شكواهم إلى السلطة السياسية معبرين فى هذه الشكوى عن سخطهم على الأوضاع السياسية والاقتصادية

المتدهورة ، ومطالبين بتحقيق العدالة ورد المظالم ومعاقبة الظـالمين ورد الحقوق إلى أصحابها .

وهناك ما أسميه أيضا الخطاب الدبلوماسى ، ذلـك الخطـاب السياسى الذى علمت مصر من خلاله العالم كيف تكـون العلاقـات الدولية ؟! وكيف تعقد المعاهدات بين البلاد ؟! وما هـى الأصـول والتقاليد السياسية التى يجب أن تراعى فى كل ذلك ؟!

إن هذه الصور المتعددة للخطاب السياسى بمستوياتها المختلفة، قد أكدت حسب ما كشف عنه تحليلنا لها أن الفكر السياسى فى مصر القديمة قد بلغ حدا بعيدا من النضج فى تلك الفترة المبكرة من تـاريخ البشرية .

فلقد أقام المصريون نظامهم السياسى على العدالـة والنظـام (الماعت) ، وكان تصورهم للعدالة والنظام تصورا شاملا يركز على تحقيق أكبر قدر من المساواة الاجتماعية بين البشر ، وعلى تحقيـق أكبر قدر من الرخاء الاقتصادى والرفاهية لبنـى الإنسـان ونجـح المصريون فى أن يحققوا هذه العدالة بمفهومها الاجتماعى والسياسى،

وأن يقدموا صورة مثلى لكيفية تحقيق التوازن بين سلطات الدولة المختلفة إذ رغم ما يشاع عن أن النظام الملكى المصرى القديم كان نظاماً إلهياً مقدساً ، إلا أنه كان نظاماً مقيداً بتحقيق العدالة والرفاهية للإنسان المصرى ، ومقيداً بالالتزام بالقوانين والأعراف التى توارثها المصريون جيلاً بعد جيل .

لقد أدرك الملوك المصريون أنهم إنما يكتسبون الخلود والمجد بقدر ما يكونون فى خدمة الشعب ، وبقدر ما يحققون من عدالة ورخاء بين مواطنيهم . كما بادل الشعب المصرى حكامه وملوكه حباً بحب واحتراماً باحترام بقدر ما يحافظ هؤلاء الملوك والحكام على الاستقرار وبقدر ما يحافظون على تطبيق العدالة والنظام ، وبقدر ما يوفرونه لهم من ظروف اقتصادية وحريات تسمح لهم بالإنجاز والعمل والاستمتاع بالحياة .

إن قراءة تلك الصور العديدة للخطاب السياسى فى مصر القديمة قد أثبتت أمامنا بما لا يدع مجالاً لأى شك أن المصريين القدامى قد ابتدعوا أول معالم النظام السياسى وأول معالم لمجتمع

مدنى متحضر فى تاريخ الإنسانية ، فقد أدركوا جيداً مفهوم الدولة المركزية ، ومفهوم الملكية العادلة ، ومفهوم تعدد السلطات والإدارات داخل الدولة الواحدة ، كما وعوا وأدركوا ضرورة الفصل بين هذه السلطات لكى تتمكن كلٌ منها من أداء دورها على خير وجه. كما أبدعوا مفهوم اللامركزية فى الإدارة المحلية ، دون الإخلال بالسلطة المركزية لإدارة الدولة .

إن المصريين القدامى كانوا أول من أدرك أن قيام السلطة السياسية إنما هو بهدف تحقيق " العدالة " للجميع . وأن الحكومات تكتسب الاحترام والتقدير بقدر ما تسهر على تنفيذ القوانين وبقدر ما تنجح فى تحقيق الاستقرار والعدالة بين المواطنين . إن قوام النظام السياسى ، المدنى فى نظرهم هو تحقيق " الماعت " ، ومن ثم فإن انهياره يكون مرهوناً بالتراخى فى تحقيق الماعت أيضاً .

ومن ثم فقد أدرك المصريون منذ ذلك التاريخ البعيد علة قيام الدول وعلة انهيارها وقدموا أبلغ تعبير عرفه التاريخ السياسى عن هذه العلة حينما قالوا إنها تتلخص فى تحقيق " العدالة والنظام " أو فى غياب العدالة والنظام .

إذن لقد تمحورت فلسفتهم السياسة وفلسفتهم للتاريخ حول هـذا المفهوم الشامل للماعت . وسيلاحظ القارئ العزيز أن " المـــاعت " هى الغاية وهى المطلب النهائى لكل صور الخطاب السياســـى فـــى مصر القديمة ، فهى التى ينصح بتطبيقها بأقصى قـــدر مـــن الدقـــة والحياد الملوك والوزراء ، وهى ما يشكو من عدم وجودها الشـلكون من أفراد الشعب . ففى وجودها الاستقرار والرخاء والأمان ، وفـــى غيابها تسود الفوضى والفساد ويعم القحط والجوع وكل أنواع الشر .

وليس بخاف على القارئ العزيز أن " العدالة " وتحقيقها فـــى المجتمع لا يزال هو " المطلب " الأساسى الذى ينشده كل من يعيـش فى مجتمع مدنى سياسى . ولا يزال هو " الجوهر " الذى يبحث عنـه ويدور حوله الفكر السياسى الحديث سواء على الصعيـد العملـى – الواقعى فيما يعرف بعلم السياسة والنظم السياسية أو على الصعيـــد الفكرى – النظرى فيما يعرف بفلسفة السياسة .

ولقارئنا العزيز أن يفخر بأن المصريين القدماء هم أول من بحث ونقب ، وأول من خطط وطبق ، وأول من نقب وعاتب طلباً للعدالة .

ولقارئنا العزيز أن يفخر بأن بلاده مصر هى التى أهدت العالم أول صورة للنظام السياسى المتكامل وهى التى علمت العالم أن جوهر الحياة الإنسانية على الصعيدين الأخلاقى والسياسى إنما هو تحقيق " العدالة " .

وفى الصفحات القادمة سيطالع القارئ العزيز بعض معالم الفكر السياسى المصرى من خلال ذلك التحليل الذى سنقدمه لبعض البرديات والوثائق المصرية القديمة . وبالطبع فلم يكن التحليل ممكنا هنا لولا أننا وجدنا أمامنا ترجمات عربية ناصعة لنصوص هذه البرديات والوثائق المنشورة فى العديد من كتب المؤرخين والباحثين الثقاة المتخصصين فى تاريخ وآثار مصر القديمة كسليم حسن وعبد المنعم أبو بكر وأحمد فخرى وعبد العزيز صالح وعبد القادر حمزة وغيرهم من المصريين ، وآلان جاردنر وجيمس هنرى برستيد وبيير مونتيه وفلندرز بترى وآلن شورتر وكلير لالويت وغيرهم من الأجانب .

ولا شك أنه كان ينقصنا فى هذه القراءة للخطاب السياسى فى مصر القديمة معرفة اللغة المصرية القديمة – اللغة الهيروغليفية والإلمام بأصول الاطلاع على هذه الوثائق بلغتها الأصلية . لكن جهود هؤلاء الأثريين والمؤرخين الثقاة من الأجانب والمصريين قد سدت هذا النقص إلى حد كبير ، وإن كنت أتمنى أن يتوفر جيل قادم من الباحثين المتخصصين فى الفكر المصرى القديم يمتلك هذه القدرة على الاطلاع على النصوص المصرية القديمة بلغتها الأصلية ، ولعلى أجدها فرصة لأناشد أقسام اللغات الشرقية القديمة وأقسام الدراسات الكلاسيكية بالجامعات المصرية الاهتمام بتدريس اللغة الهيروغليفية حتى لا يكون دراستها والتخصص فيها قاصرين على أقسام المصريات بكليات الآثار ، فاللغة الهيروغليفية هى أحد عناصر هويتنا القومية وهى إحدى الركائز التى تشكلت على أساسها الهوية المصرية منذ قديم الزمان .

وعلى كل حال فليغفر لنا القارئ العزيز كل ما سيراه من نقص أو تقصير فى هذه القراءة الأولية لنصوص الخطاب السياسى

فى مصر القديمة . فكل ما نطمح إليه هو أن نزيل الغشاوة التى تجمعت أمام أعيننا فلم نعد نرى هذه الكنوز العظيمة فى تراثنا الفكرى فى مصر القديمة وخاصة أننا نعيش فى عصر تجمعت فيه العديد من قوى الشر لتطمس الإنجازات الحضارية لمصر القديمة . وأخذ بعضها ينسب هذه الإنجازات إلى الزنوج وبعضها الآخر ينسب هذه الإنجازات لليهود . وأصبح المصريون بين ادعاءات الزنوج من الأمريكيين الأفارقة ، وبين ادعاءات اليهود الصهاينة حائرين بينما هم أصحاب الحق الأول والأخير فى هذه الإنجازات العظيمة التى صنعها أجدادهم العظام ، إذ إن مصر لم تكن يوما هبة للنيل أو مدينة لأحد ، بل هى على الدوام هبة المصريين أنفسهم .

وإذا كنا اليوم نلمح تقصيرا هنا أو هناك ولم نعد نهتم كثيرا بما يدور حولنا وبما يكتب مهدرا كرامتنا ومقللا من إنجازاتنا فى مختلف العصور ، فإنى أثق ثقة لا حدود لها فى أن الغد القريب سيشهد صحوة من الباحثين والمفكرين المصريين الذين سيهبون للدفاع عن حضاراتهم وعن إنجازاتهم ، ويهبون حياتهم لصنع المجد

الجديد لمصرنا الحبيبة وإنى لألمح هذا الغد القريب فى عيون هـــذا الحاضر الزاهر الذى نعيشه هذه الأيام فى مختلف مجالات الحياة . والله أسأل أن يمنحنا قوة البصيرة والإبداع والقدرة علـــى مواصلـــة الجهد فى سبيل إعلاء شأن مصر والمصريين دائماً . . . وهو مـــن وراء القصد

د. مصطفى النشار

مدينة نصر القاهرة

فى ٣٠ مايو ١٩٩٨م

الموافق : ٤ صفر ١٤١٩هـ